

ظاهرة الشوق والحنين إلى مدينة الأبيض في الشعر السوداني

The phenomenon of longing and nostalgia for the city of El-Obeid in

Sudanese poetry

د. الضو إبراهيم الضو أحمد

أستاذ الأدب والنقد المشارك

جامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية (السودان)، adawport2003@gmail.com

تاريخ النشر: 2020/07/30

تاريخ القبول: 2025/01/08

تاريخ الاستلام: 2024/12/01

ملخص:

هذه الدراسة عن ظاهرة الشوق والحنين إلى مدينة الأبيض في الشعر السوداني وتهدف هذه الدراسة إلى معرفة هذه الظاهرة وأسبابها من خلال ثلاثة نماذج مختارة هي قصيدة محمد سعيد العباسي (عروس الرمال)، وقصيدة الناصر قريب الله (حنين إلى الأبيض) وقصيدة الشاعر إبراهيم عمر الأمين (ذكرى وحنين). وتأتي أهمية هذه الدراسة من كونها تتناول نوعاً من الشعر (الشوق والحنين) لم تحظ به مدينة في السودان كمدينة الأبيض، ولكنه لم يجمع في كتاب واحد ولم يتناول بالدراسة، واتبعت الدراسة المنهج الوصفي التحليلي معتمدة في مادتها على القصائد المختارة ثم المصادر ذات الصلة، وتوصلت الدراسة إلى عدد من النتائج منها: كثرة القصائد التي كتبت عن الأبيض وغلبة شعر الشوق والحنين عليها، ثم إن ظاهرة الشوق والحنين إلى الأبيض ترجع إلى جمال طبيعتها وخاصة في فترة الخريف، وكرم أهلها وحسن عشرتهم. ومعظم

الشعراء الذين كتبوا عن الأبيض عاشوا فيها فترة من شبابهم ومازالوا يحنون إلى تلك الأيام الخوالي التي عاشوها في ربوعها.

وفي الختام توصي الدراسة بجمع الشعر الذي كتب عن مدينة الأبيض في كتاب واحد، ثم دراسته من كل جوانبه الفنية والبيانية واللغوية.

الكلمات المفتاحية: الأبيض؛ ظاهرة حنين؛ الشوق في الشعر؛ الشعر السوداني.

Abstract: This study on the phenomenon of longing and nostalgia for the city of white in Sudanese poetry This study aims to know this phenomenon and its causes through three selected models are the poem of Muhammad Saeed Abbasi (bride of sand), and the poem of Nasser Qarib Allah (nostalgia to white) and the poem of the poet Ibrahim Omar Al-Amin (memory and nostalgia). By studying, The study followed the descriptive analytical approach based in its material on the selected poems and then the relevant sources, and the study reached a number of results, including the large number of poems written about white and the predominance of longing and nostalgia poetry, then the phenomenon of longing and nostalgia for white is due to the beauty of its nature, especially in the autumn period, and the generosity of its people and their good tenth. Most of those who wrote poets about white lived in it during their youth and are still nostalgic for those old days in which they lived.

In conclusion, the study recommends collecting the month that was written about the city of El Obeid in one book, and then pedaling it in all its technical, graphic and linguistic aspects.

Keywords: El-Obeid; phenomenon of nostalgia; longing; Poetry in Sudan.

1. مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين وبعد.

إن الحنين إلى الأوطان عاطفة إنسانية أصيلة في النفس البشرية، وهي لا تقتصر على إنسان دون غيره، بل يحس العربي والعجمي والبدوي والقروي والرجل والمرأة والكبير والصغير. فإذا اغترب إنسان عن أهل ووطنه شعر بالحنين والشوق إليهما، وقد يكون الوطن الأم الذي ولد فيه وعاش وترعرع، أو قد يكون وطناً رحل إليه وقضى فيه أيام سعيدة ولكنه غادره إلى مكان آخر ففراخه يحن ويتشوق إليه ولا سيما إذا كانت تلك الأيام أيام صبا أو شباب.

وكل إنسان يستطيع التعبير عن شعور الحنين إلى الأهل والوطن بما تيسر له من سُبُل التعبير عن ذلك الشعور، والشعراء وحدهم القادرون على إبراز هذه الاستجابة اللفظية الماثلة في الشعر الأسر للقلوب والمهيج للعواطف.

أهمية الدراسة:

تتبع أهـمي الدراسة من كونها تتناول ظاهرة الشوق والحنين إلى مدينة الأبيض وهي ظاهرة جديرة بالوقوف عندها لكثرة الشعر المنظوم في ذلك لكن الدراسة اقتصرت على ثلاث قصائد هي قصيدة العباسي (عروس الرمال) وقصيدة الناصر (حنين إلى الأبيض) وقصيدة الشاعر إبراهيم عمر الأمين (ذكرى وحنين).

أهداف الدراسة:

هدف الباحث من هذه الدراسة إلى الوقوف عند القصائد التي احتوت ظاهرة الشوق والحنين في القصائد الثلاث، ثم تحليلها لمعرفة هذه الظاهرة فيها.

قسم المقال إلى موضوعين في الموضوع الأول كان عن شعر الشوق والحنين في الأدب العربي، والموضوع الثاني عن ظاهرة الشوق والحنين إلى مدينة الأبيض من خلال القصائد الثلاث.

أما المنهج الذي اتبعته الدراسة فهو الوصفي والتحليلي معتمدة على القصائد الثلاث، ثم المراجع ذات الصلة بالموضوع، ثم جاءت الخاتمة، وفيها أهم النتائج والتوصيات.

2. الشوق والحنين في الشعر العربي

الإنسان محب لبيئته ووطنه، وهو متمسك بهذا الوطن يحن إليه ويدافع عنه ويبذل في سبيله كل غال ورخيص للذود عن حياضه، وهذا الحب لم يكن مقصوراً على قوم دون آخرين، أو مجموعة من البشر دون أخرى... مطلقاً فيما نعلم لم يخل منه أي أدب حي في تاريخ الفكر الإنساني (جبر، 1989م، ص 129).

والحنين إلى الوطن ظاهرة إنسانية عامة لا يستطيع المرء التخلي عنها مهما بلغ رقيه الحضاري، وتطوره المادي، وسموه الروحي (جبر، 1989م، ص 129).

قال البروفسير عبد الله الطيب عن الشوق والحنين في الشعر: الشوق والحنين من أعمق المعاني الإنسانية وأشدها لصوقاً وعلوقاً بالنفس، وحياة البداوة مما يزيدها ويقويها لأنها أكثر ما تقوم على الفصيلة والأسرة والدار والوطن وحياة الصحراء أشد إغلالاً في هذا المعنى من سائر أصناف الحياة البدوية لشسوعها وانجردها، وقوة اتصال الذاكرة بمواضع الاستقرار فيها... (عبد الله الطيب، 1991، ص 140).

وشعر الشوق والحنين تناوله الشعراء منذ العصر الجاهلي، واستمر عبر العصور الأخرى فيها هو الشاعر امروء القيس يحن إلى دياره وأحابه فيقول :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل
فتوضح فالمقراة لم يعف رسمها لما نسجته من جنوب وشمال
وفي شعر العصر الإسلامي نلمح ظاهرة الشوق والحنين واضحة في هذه الأبيات
التي أوردتها المرتضى في أماليه لشاعر من نجد يقول فيها: (الشريف،
1954م، ص151).

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة بأسناد نجد وهي خضر متونها
وهل أشربن الدهر من ماء مزنة بحرة ليلى حيث فاض معينها
بلاد بها كنا نحل فأصبحت خلاء ترعاها مع الأدم عينها
تفياًت فيها بالشباب وبالصبا نخل بها أهوى علي عيونها
فالشاعر يتمنى أقصى ما يتمنى أن يبيت ليلة بنجد موطنه، وأن يشرب من ماء
المطر فيها، ثم للنظر إلى هذه الحسرة التي تبعثها الأبيات في نفس
القاريء، وهي عبارته بلاد كنا نحل ... ثم للنظر كيف يتذكرها مقرونة
بأسعد الأوقات في حياته يتذكرها مقرونة بالشباب وبالصبا.

وفي شعر العصر العباسي رغم تطور الحضارة يبدو الشوق والحنين واضحاً
في كثير من قصائد العصر، ولعل أبيات أبي تمام التي قال فيها: (التبريزي،
1964م، ص157).

نَقْلُ فُؤَادِكَ حَيْثُ شِئْتَ مِنَ الْهَوَى مَا الْحُبُّ إِلَّا لِلْحَبِيبِ الْأَوَّلِ
كَمْ مَنْزِلٍ فِي الْأَرْضِ يَأْلِفُهُ الْفَتَى وَحَيْنُهُ أَبَدًا لِأَوَّلِ مَنْزِلِ

ولم يقف الشعور بالحنين إلى الوطن عند الوطن الأم كما نرى ذلك عند الشاعر أبي العلاء المعري وحدها، وإنما كان يشعر بالحنين الجارف إلى بغداد، خاصة بعدما تركها قافلاً إلى بلده الأم؛ فهو "لم يكذب يعود من بغداد حتى أخذت نفسه تذوب حسرات لفراقها" (طه حسين، 1981م، ص 80). ومما يدل على ذلك قوله في وداع بغداد (المعري، 1901م، ص 1349-1351):

أُودِعْكُمْ يَا أَهْلَ بَغْدَادَ وَالْحَشَا عَلَى زَفَرَاتٍ مَا يَنْبَغُ مِنَ اللَّذَعِ
وَدَاعَ ضَيِّ لَمْ يَسْتَقِلَّ وَإِنَّمَا تَحَامَلَ مِنْ بَعْدِ الْعِثَارِ عَلَى ظَلَعِ
إِذَا أَطَّ نِسْعُ قُلْتِ وَاللَّوْمُ كَارِي أَدَّكُمْ لَمْ تَفْهَمُوا طَرَبَ النَّسْعِ
فَبَيْسَ الْبَدِيلِ الشَّامُ مِنْكُمْ وَأَهْلُهُ عَلَى أَتَمِّ قَوْمِي وَبَيْنَهُمْ رُبِّي
أَلَا زَوْدُونِي شَرِبَةً وَلَوْ أَنِّي قَدَرْتُ إِذَا أَفْنَيْتُ دِجْلَةَ بِالْجَرِّ
وَأَنِّي لَنَا مِنْ مَاءِ دِجْلَةَ نَغْبَةً عَلَى الْخُمْسِ مِنْ بَعْدِ الْمَقَاوِزِ وَالرَّيْعِ

في الأبيات ودع الشاعر المعري مدينة بغداد وداعاً حزيناً، فالمعري جاء إلى بغداد طالباً للعلم ورغم أنه لم يوفق في رحلته ولكن نراه جزعاً على فراق بغداد الموطن والمكان العزيز على النفس، ذلك الموطن الذي لم يكن بديله في رحلة الوداع سوى الشام حيث معرّة النعمان، وهو بديل بئس مدموم، رغم أنه موطن قومه.

نرى الشوق والحنين واضحاً فيها وقريب من هذا نجده في قصائد جاهلية وإسلامية وعباسية وحديثة وغيرها.

3. ظاهرة الحنين إلى مدينة الأبيض في الشعر السوداني

لمدينة الأبيض مكانة كبيرة في الشعر السوداني، فقد قصدها عدد كبير من الشعراء وعاشوا فيها فترة من الزمن خاصة تلك الفترة التي سبقت استقلال السودان، أو بعده، ومن هؤلاء الشعراء محمد سعيد العباسي والناصر قريب

الله والمهندس إبراهيم عمر الأمين ومحمد أحمد المحجوب، مصطفى طيب الأسماء، ومن شعراء الغناء السوداني سيد عبد العزيز، ومحمد علي عبد الله الأمي، وأحمد عبد المطلب حدباي، وحميصة أبو عشر، وغيرهم وكان بها محمد عوض الكريم القرشي وقاسم عثمان بريمة ودفع الله السماني وغيرهم.

3.1. عروس الرمال (العباسي، 2010م، ص 99-100):

تعريف بالشاعر:

قال في مقدمة ديوانه: أنا محمد سعيد العباسي بن محمد شريف بن نور الدائم بن أحمد الطيب العباسي، منشئ الطريقة السمانية بمصر والسودان، ولدت بعراديب بلد نور الدائم بالنيل الأبيض 23 من رمضان سنة 1298هـ، ولما انتقل بي والدي في حوادث المهديّة إلى الشيخ الطيب بمديرية الخرطوم شمالاً، وبلغت من العمر سبع سنين أدخلني مكتباً (خلوة) لقراءة القرآن عند عمي الزاهد الورع الشيخ زين العابدين الشيخ أبي صالح، وبمكتب آخر بأمر درمان للشيخ عوض الكريم الأزهرى... وتنقلت في مكاتب أخرى تبلغ العشرين عدداً، وكان سيدي الوالد يأمرني أثناء قراءة القرآن بحفظ متن الأجرومية مع متن الكافي في علمي العروض والقوافي... وبعد استرجاع السودان ودخول الجيش المصري السودان طلب كتشنر باشا من والدي إلحاقى بالمدرسة الحربية المصرية، فدخلها 28 مارس سنة 1899م وأدرجت في عداد تلامذة من السودان يبلغون 45 تلميذاً وبعد سنتين من انتظامي بها استعفيت فقدمت طلباً بالاستعفاء وأنا بالخرطوم في الإجازة السنوية فقبل الطلب... (العباسي، 2010م، ص 10).

ولقد نشأت بين العباسي وبين أستاذه الشيخ عثمان زناتي مدرس اللغة العربية بالمدرسة الحربية صلة روحية عظيمة: ذلك أن الشيخ عثمان رأى أن تلميذه كان يحفظ القرآن، وله إلمام بالنحو والعروض قرّبه إليه دون التلاميذ، وكان يملئ عليه بعض الأبيات من الشعر ويطلبه بحفظها... (سامي، 1999م، ص 44).

كان العباسي ذا ثقافة دينية واسعة قوامها حفظ القرآن الكريم، ودراسة اللغة العربية وقراءة الجيد من أشعارها إلى جانب نشأته في بيت دين وعلم، والعباسي

أكثر شعراء عصره جزالة وتأثراً بحياة البادية وذلك لتنقله في بوادي غرب السودان وخاصة بادية الكبابيش، توفي العباسي في 1963م، وخلف وراءه ديوان شعره (عابدين، د. ت. ص 3-19).

النص:

أرى النوى أكثرت وجدي وتذكاري وباعدت بين أوطاني وأوطاري
والزمني عن كره مصائرها هذا الترحل من دار إلى دار
فأرقت بالأمس فتياناً كأنهم في الجود إما تباروا خيل مضمار
كأنما أرضعتهم أمهاتهم غيظ العدو وبر الضيف والجار
أفدي الأبيض أفدي النازلين بها مثوي الأكارم أشياعي وأنصاري
شادوا بذكرى ولولاهم لما عشقت هذي المحافل أدابي وأشعاري
من كل ندب كريم الطبع ذي خلق سمح وليس بنمام ولا زاري
أوفى الأخلاء في الجلى يضاق بها ذرعاً وإن هيج فهو الضغيم الضاري
شروا من الحمد ما يبقى باع الكرامة عن زهد بدينار
لو كنت كابن الحسين اليوم ضغت لكم ما قد أفاء على بدر بن عمار
إن الذي قد كساكم من صنائعه ثوب الفضيلة عراكم عن العار
هل من رسول إلى ليلى عني تحية إعظام وإكبار
لم أنسها إذا سعت نحوي تودعني أستودع الله منها خير مختار
في ليلة لم ينم إلا الخلي بها القت على الناس والدنيا بأستار
سعت إلى وفي لألاء غرتها نور ذممت لديه الكوكب الساري
فيالها زروة جاد الحبيب بها وساعة تشتري منه بأعمار
ورد حبيتنا به الجنات مؤتلقا من صنع ربك لا من صنع آزار
وقد ظلمناه إن جئنا نشبهه بفارة المسك أو بالمندل الداري
يا قبله ما أحيلها بهمهمة فيها معاني ابن زيدون وبشار
فهل لليلالي أن تولي الجميل بها ولو كنغبة عصفور بمنقار

منى قضينا ولم نظفر بها ولقد كانت ترى وهي منا قيد أشبار
ليهنكم يا كرام الحي أنكم في جنة بين نوار وأنوار
وغانيات كزهر الروض تسمعكم سجع القماري بأعواد وأوتار
يا ليت شعري هل ينسى الرفاق فتى أمسى رهين تباريح وأسفار
فاستنبتوا نسمات الفجر عن خبري فهي الأمين على غيبي وأسراري
الليل بعدكم ليل السليم وما ذاك النهار سوى نار بإعصار
لا هم إن فاتني ما قد خصصت به غير من الناس من نعى وإيثار
فامتن عليّ وهبني منك عارفهً وحط مولاي عني ثقل أوزاري
حول النص:

هذه القصيدة فيها الحنين إلى سالف الأيام، بثّ فيها الشاعرُ شوقه وأمانيه
لأيّام زاهياتٍ قضّاها في مدينة الأبيّض، والتي عنون بها قصيدته بلقب: (عروس
الرّمال).

والذكرى مرتبطة بالماضي حيث تأزرت الأفعال الماضية (أكثر، باعدت، الزم،
فارق) في تصوير حالة الشاعر وحنينه لماضيه وأيامه الماضية، وهي حال ظلّت
ملازمة للشعر منذ جاهليّته، فالشّوق إلى الرّبع، وأمنيات العودة إلى الماضي مما
يميّز الشّعر التقليدي الملتزم بديباجته وخصائصه.

جمعت القصيدة بين الحنين والمدح واستخدم الشاعر في التّعبير عنهما
مفردات يبدو أنّ لمحفوظه من الشّعر دورٌ في اختيارها فقلوله: (النّوى، خيل،
مضمار، ندب، الضّغيم الضاري، فارة المسك، المندل، نغبة عصفور، ليهنكم)،
ثم قافية الرّاء التي أكسبته القدرة على البثّ والنّظم.

هذه القصيدة وأشباهاها تمثّل مرحلة حاول الشّعراء فيها العودة بالنّظم إلى
سالف عهده، من النّصاعة والبلاغة، ويقودهم إلى ذلك حُبهم وولعهم بالقديم
من الشّعر، العباسي في قصيدته هذه تقاسمته ثلاث أحوال: شكوى الفراق، وألم
البعد، والرّحيل، ثمّ أعقب ذلك بمدح الأخلاء في تسعة من أبيات القصيدة، ثمّ
ما تبقى من أبيات القصيدة جعلها لمحبوبته وأعاد ذكرى رفاقه.

في مفتتح القصيدة نجد أنّ الشاعر قد تخيّر ألفاظاً تُعبّر عن ألمٍ معين في نتيجة فراق الأحبة (النوى، أكثر، وجدي، باعدت) تضافرت هذه الألفاظ وتضامنت؛ لتبرز ما حلّ بالشاعر من حالٍ إلى حال، وهو بكاء للأطلال ولكن بلا طلل، وإنما هو تقليد النظم، فالشاعر قد ألزم نفسه بالنظم على غرار الأقدمين. كذلك يبدو التزامه التقليد في مدح رفقته من التّأزّلين بالمدينة، فمفردات المدح عنده هي مفردات الأقدمين ولا غرو، فالشاعر يمتلك ذخيرة من تلك المفردات والتي لا شك أنّها مما حفظه، أو مما اطّلع عليه من الشعر في عصوره الأولى، ثم إنّ الشاعر قد تمّنى أن يكون مثل المتنبي في مديحه فقد جعل المتنبي قدوة في المقدرة على المدح.

ثمّ عاد الشاعر إلى ليلاه والتي عجز عن وصفها، فذكر سعيها إليه لا كما سعى امرؤ القيس ليلاه، في (ليلة) والليل عند العشاق إمّا سعادة بلقيا الحبيب، وإمّا شقاء يسوقه التذكار، أمّا العباسي فقد كانت ليلته سترًا حجب عنه الرقيب، ونورًا أشاعته زورة الحبيب.

وختم الشاعر قصيدته بذكرى الأخلاء في جملٍ إنشائيّة (لهنكم، يا ليت شعري، هل ينسى، فاستنبؤوا، فامتن، هبني، حطّ عيني) فالقصيدة نفثة مصدور قدر به الزّمان فأبعده عن مدينة أحبّها وأحبّ ساكنها، فذاق في ذلك ألمًا دعاه إلى نظم تلك الأبيات تعبيرًا عن حاله.

والقصيدة بمعايير النقد الحديث تفتقد الوحدة العضويّة، وهي سمة تميّز الشعر التقليدي، والشاعر من شعراء التقليد الذين يهتمّون بالموسيقى الخارجيّة التي تتمثّل في الوزن والقافية.

3. 2. حنين إلى الأبيض (قريب الله، 1999م، ص 76-78).

تعريف بالشاعر:

شاعر القصيدة هو الناصر قريب الله، ولد بأم درمان عام 1918م، ووالده الشيخ قريب الله أبا صالح، ووالدته عاتكة الزبير باشا رحمة، التحق بالمعهد العلمي عام 1934م، وتركه مكرهاً عام 1942م. عمل معلماً بالمدرسة الأمريكية بالخرطوم حتى عام 1945م، انتقل بعدها إلى مدرسة النهضة بالأبيض حتى عام 1950م، ومنها إلى عطبرة، ثم إلى بورتسودان عام 1950م مدرساً بالمدرسة الكاثوليكية هناك. اشتد عليه المرض عام 1953م، فنقل إلى الخرطوم حيث انتقل إلى رحمة مولاه. كتبت الدكتورة فاطمة شداد عنه رسالتها للماجستير بعنوان: (الناصر قريب الله - حياته وشعره)، وقد صدرت في كتاب، كما ألف الدكتور عبد القادر شيخ إدريس كتاباً عن حياته وأدبه. وقد نشرت مجموعة من شعره في ديوان الناصريات الذي نشرته دار البلد عام 1999م بتصحيح الشاعر محمد المهدي المجذوب (المولى، صالح، 2010م، ص63).

النص:

لا تظن العهود بعدك تنسى فيطيب البعيد بالبعد نفسا
وهواك العتيق ما زال يسقي بدموع الفراق كأساً فكأساً
كلما ساقني القضاء لأرض أجتبي دونها بذكراك أنسى
ما فؤادي مني إذا عاد يسلو ك، ولم يجتو السنين العمسا
لو تكشف للشمال وللشرق أصابا فتى لسكناه يأسى
لا يرى البدر في سوى جو ك بداراً ولا يرى الشمس شمسا
يسأل المعصرات عنك، وقد سا فرن صوب الشمال يسقين ببسا
هل أصابتك ديمة من يديها؟ والربى من مفوف الوشي تكسى
فترى بهجة الربا قد تناهت عند بشرب الرياح يجرين همسا
وترى في مراتع الهم روضاً أنجبته الرمال طيباً وغرسا

مدينة الأبيض في الشعر السوداني

يا رعى الله مصبجي في مغانيد ك وممساوي والخمائل نعسي
أتلقي فواغي الطيب منهن تحايا كأن في الروض عرسا
وغدي إلى بنين أساقيد هم رحيق العلوم بحثاً ودرساً
والنديان حبذا فيهما صح بي وأسماهم إذ الليل أمسي
سعدت بالصحاب دنياي حتى ما توهمت أن في الدهر نحسا
إذا أويتنا من الوفاء لظل ذي نعيم من الشوامخ أرسى
خدعت ناظري الأبيض لما صورت من ملائكة الله إنسا
نفر لا يزور قلبي هم في حماهم ولا ترى النفس تعسا
أنفس من مكارم وسماح ونهى أشربت ذكاء وكيسا

أبدار لكردفان حنين لفتاها البعيد أم هي تنسى
كم عكفنا بها نصوغ حديثاً رائع السبك أو نحبر طرسا
ولدى كرمه النجومى أقمنا دون جيش الهموم للنفس ترسا
كم حدثنا لها نوازع لهو ففرغنا لهن والليل عسا
وأدرنا من البيان سلافا طاب في دولة المشاعر جنسا

تلك أيامنا الحبية جادت بمتاع النفوس مغدى وممسي
لو شرينا بسائر العمر أدنا ها رأينا إزاءها العمر بخسا
ورعى الله في الحمى بدويا ت زحمن الطريق مشياً وجرسا
هن في الحسن للطبيعة أشبا هوإن فقتها شعوراً وحسا
ما ألفن الحياة في ضجة المد ن ولا ذقن للفساتين لبسا
باديات النهود غير وشاح صان نهذا وخان آخر مسا
مثل قوس الغمام يعترض الغيم ولا يوسع السحائب طمسا
كل مياسة المعاطف تدنو بقوام يشابه الغصن ميسا

توجت رأسها صفائر سود تتلاقى لديه طردا وعكسا
وكست لفظها الإمالة لينا لم يخالط إلا الشفاه اللعسا
أنت من كردفان مهجر روح لم تهاجر إلا لتنزل قدسا
اصطفت من جمالك الغض ليلي واصطفت من فؤادي الصب قيسا
ساءني - العام- أن صيفك يقسو فأرى حاكما من الصيف أقسي
أعلاج الظماء طرد من المو طن بنس العلاج بالطرد بنسا
بات لا يستطيع إجراء ماء ولكم يستطيع للماء حبسا
رُبَّ سِدِّ بناه ما سد فقراً لفقير ولا وقى الناس باسا
غير إشاعة المزارع رقا ما أقلت يد المزارع فأسا
كردفان اشحذي سلاحك إنما سوف نجلي الطغاة عانين خرسا
وهلي لنملاً الأرض طهرا بعد أن أشبعت فساداً ورجساء
حول النص:

تعد قافية السين من أصعب القوافي إذ لا يستطيع النظم فيها إلا من يمتلك
القدرة البيانية والثروة اللغوية، وهذا ما تميّز به الشاعر الناصر في قصيدته
تلك، فقد استطاع أن ينظم فيها ما فاق الأربعين بيتاً.
جعل الشاعر من الأبيّض المدينة شخصاً يخاطبه (تشخيص) فضمير
المخاطب (الكاف) قد ورد في حالات إعرابية من الرفع والنصب والجرّ (بعدك،
هواك، بذكراك، يسلوك، جوك، عنك، أصابتك)، ثم هو يرسم لوحاتٍ يلوّنها
بالأسى على فراق تلك المدينة التي أحبّها، فهي المحبوبة التي أخلص لها الحبّ،
فذكرها لا تفارقه، ولا مكان يشبه مدينته، والمقطع الأوّل من القصيدة جعله
الشاعر للمدينة ولا شك أنه نظم تلك الأبيات وهو بعيد عنها.
وفي المقطع الثاني من القصيدة خصّ به أصحابه، فقد ذكر صباحه في تلك
المدينة وهو يغدو إلى المدارس يعلم تلاميذه، حتى إذا جاء المساء اجتمع مع رفاقه
في أحد الناديين تلك الرفقة التي أنسته أن في الدنيا مأس، أمّا نهاره فهو تحت
ظلال تلك الأشجار الظليلة مع رفاقٍ كرامٍ أوفياء ذوي عقول وسماحة.

ثمّ المقطع الأخير تقاسمته أغراض الوصف، والسياسة، فقد وصف البدويّات بوصفٍ يقارب وصف بدويّات المتنبي، فقد رسم أجسادهنّ وأزياءهنّ ولهجتهم وصفاً يكشف عن غزلٍ مكشوفٍ، فرسم صوره تلك من مشاهدات حيّة أتاحها له معايشة تلك الأجواء، مما جعله يجيد الوصف كمن رأى لا كمن سمع. وختم القصيدة لائماً المسؤولين الذين تجاهلوا حال الناس، وهم عطاش كان يكفيهم بناء سدّ يحجز الماء لشرب الناس، فما أنشئ من سدود لا تكفي حاجة الناس، وهو يدعو للثورة ضد الظلم والفساد.

ما يمكن قوله عن هذه القصيدة إنها تمثّل الشعر التقليدي الذي يحاول الشاعر فيه أن يبدي قدرته على النّظم، والشاعر الناصر يمتلك تلك القدرة، فقد تمكّن من وصف الطبيعة بما يناسب جو المدينة في الخريف (المعصرات، ديمة، مفوف الوشي، الربا، مراتع الهم، روضاً) ثمّ وصف صباحه ومساءه (مصبحي، ممساي، غدوّي، أسمارهم، الليل، لظلّ ذي نعيم)، فالزّمان عنده مما يشكّل جمال اللوحة التي رسمها، والزّمان والمكان يُشكّلان حدوداً زمنيّة ومكانيّة لجو القصيدة، فقد وفق الشاعر في إدراجها بوصفها من مقومات ومكملات النّظم.

والمكان في القصيدة يحتلّ أكثرها في (المدارس والنوادي ودار كردفان، والمدينة بشوارعها وديارها) والزّمان في القصيدة تُمثّله (الصّباح والمساء والظّهيرة) والإنسان يمثّله (الرّفاق والبدويات وإنسان كردفان) وتلك مقومات الصّورة عند الشاعر، وهي صورة لونها الشّاعر بما يحسّه تجاه المدينة وإنسانها، ونرى أنه قد أوفاهما حقهما من الوصف، ونرى أثر الأقدمين في مفردات الشّاعر وهي سمة لازمت كل شاعر اقتدى وتشربّ معاني الشعر منهم.

3. ذكرى وحنين

التعريف بالشاعر:

جاء في مقدمة ديوانه الذي كتبها الأستاذ مصطفى طيب الأسماء ولد الشاعر إبراهيم عمر الأمين عام 1919م، وبدأ دراسته بالقرآن، ثم التحق بالمدارس حتى تخرج في كلية غردون من قسم المهندسين، ثم بدأ حياته العملية في الوظيفة الحكومية. وبعد عام من عمله نقل إلى مدينة الأبيض (عروس الرمال) وهناك التقى بصفوة من شعراء جيله، وبدأت شاعريته تتفتح أزهارها، ثم تأتي ثمرها، واكتملت فيها الناحية الوجدانية الجمالية، والسياسية والاجتماعية. فلم يطغ جانب من جوانبه على آخر وكان لكل جانب حقه. فهو في وجدانياته شاعر رقيق مرهف الإحساس خفاق الفؤاد، يركع خاشعاً في محراب الجمال، وهو راهب متبتل في ديري الحسن تحيط به أجنحة الحب وتنطلق منه تسابيح الصلاة في معبد الجمال... (عمر الأمين، د. ت. ص 6).

النص:

بعد خدمة سنوات ست في مدينة الأبيض نقل الشاعر منها: بعد محاكمة سياسية بسبب قصيدته (من يشتر المجد لا يستكثر الثمنا) ... وهو في هذه القصيدة يتشوق إلى وحي إلهامه عروس الرمال، ويحن إلى عهداها ويعدها باللقاء: (عمر الأمين، ص 82-83)

أرى الدهر لا يلقي فؤادي مهادناً وما راقه إلا التفنن في غبني
يفرق ما بيني وبين أحبتي ويمنع من أهوى ويبعد من أدني
بنيت من الآمال دنيا حبيبة فعاد بكف البين يهدم ما أبني
أمد له كفي فألقى بكفه مجنا قبيح الوجه والظهر والبطن
وما أنا من يرجو من الدهر مغنماً لأنني لم أحسن به مرة ظني
رجوت لنفسي حظ كل مجاهد يحن لدنيا القهر والبطش والسجن
وأثرت زاد الفكر والروح والقوى وأهملت زاد اللحم والعظم والبطن
ودهري لا يرضي على بهذه يخص بها غيري ويمنعها عني
وكانت عروس الرمل مهبط فتنتي ففيها سما عزمي وفيها نما في
رعى الله أياماً لديها قضيتها أرق من النجوم وأندى من المزن

مدينة الأبيض في الشعر السوداني

تقضت ولم أقض منها لباناً وعاجلي نحس الملازم بالتبن
وعندي صبايات لديها غرستها وكنت أرجي من لذاذاتها أجنبي
وعندي مواعيد لقوم ضربتها وسرت وما قرت بلقياهم عيني
وفيها فتاة لي عليها وحقها ديون غوايات وما سددت ديني
تحاشيتها يوم الوداع لأنني خشيت عليها أن يروعها حزني
فهل أنت تدري ساكن الرمل أنني أرى فيك وجه البشر والسعد واليمن
وأنت أحلى في عيوني من الكرى وأعذب طعماً في فؤادي من الأمن
وشخصك دون الناس مهما حجبته أحبهم عندي وأقربهم مني
سألقاك في شعري جمالاً أصوغه وتخلقه روعي ويبدعه ذهني
وألقاك نوراً مترعاً حول يقظتي وطيفاً متى زار الكرى قرة جفني
جهلت بك الدنيا لأنني وجدتها لديك بما توحى من السحر والحسن
وحبك أغناني عن الناس كلهم فأنت ورب الناس عن كلهم تغني
فلولم تكن في الناس لم يصب خافقي ولا طربت أذني ولا امتلات عيني

أعيدي عروس الرمال قيثارتي التي أثارك منها صارخ الشعر واللحن
ولا تقطعي حبلتي فإنني عائد لألقاك في الأمل!! والأم الماضي
يقيناً عروس الرمال أني عائد فلا تحطمي كأسني ولا تفرغي دني
سأرجع كوني عند ظني وفيه وإن كنت فوق الشك عندي والظن
هنالك من يسعى لبعدي وهمه يفرق بين الطائر الحر والغصن
ليبن إذا ما شاء سداً فأني سألقاك رغماً عنه بل رغم ما يبني
يقيناً عروس الرمال إني عائد فلا تحطمي كأسني ولا تفرغي دني
حول النص:

استهلَّ الشاعِرُ المهندس إبراهيم عمر الأمين قصيدته بدمِّ الدَّهر الذي ملأ
فؤاده غُبْنًا، فقد فرَّق الدَّهر بين أحبَّته، ثمَّ خاب أمله، إلا أن ذلك ليس

بمستغرب من دهره الذي اعتاد قهره، فاستعاض عن إحباطاته باللجوء إلى العلم ينهل منه.

يعود الشاعر إلى ذكرياته في المدينة التي شهدت فترة من حياته عبّر عنها بقوله: (كانت، سما، نما، قضيتُها، تقضتُ، عاجلني، كنت)، ثم يُظَر أسفَه على انقضاء أيامه في المدينة التي أحبّها، وذلك نتيجة لنحسٍ لازمه طويلاً. رغم أنّ الدّهر عاجله بفراق المدينة إلا أنّه ظلّ وفياً لرفاقه وفتاته، فللمدينة موقعٌ خاصٌّ داخل قلبه.

تمثّل ثمانية الأبيات من القصيدة شكوى من الدّهر وظلمه، فقد خاب ظنّه، وإن كان لا يحسن الظنّ فيه، إلا أنّ ذلك لم يمنعه من أن يكون قويّ العزيمة قاهرًا لصعاب الحياة.

يعود الشاعر من يأسه وقنوطه إلى (عروس الرّمال) يذكر أيامه فيها وما كان له من صداقاتٍ وحبٍّ، ويخصّ بالذكر ليلاه تلك الغانية التي ملأت عليه حياته وحببت إليه المدينة.

وفي مقطع القصيدة الأخير يخاطب الشاعر مدينته (عروس الرّمال) كمن يخاطب محبوبته التي افترق عنها، ويؤكد رجوعه إليها لا محالة فلن يثنيه عن الرجوع شيء، ويؤكد ذلك بقوله: (يقينًا، سأرجع، سألقاك، رغبًا عنه) ويكرّر قوله: يقينًا عروس الرّمل إنّي عائد.

توزّعت القصيدة على ثلاثة مواقف: موقفه من الدّهر، وموقفه من محبوبته، وعزمه على العودة إلى المدينة، وهو في تلك المواقف يظهر عاطفته الصادقة فيما يقول، وقد حافظ في أبياته على الوزن والقافية شأنه في ذلك شأن الشعراء التقليديين الذين اهتموا بالموسيقى الخارجيّة.

أورد الشاعرُ من ألوان البيان: التّشبيهات والكنيات والاستعارات، فقد شبّه الدّهر بشخصٍ يتربّص به ويمنع وصله بمن أحبّ بل قد هدم آماله. والمدينة عنده شخص بيده أن يسعد الشاعر ونراه يتوسّل إليها بأفعال الأمر (أعيدي، لا تقطعي، فلا تحطمي، ولا تفرغي، كوني) وهي رجاءات وتوسّل، ونجد التّكرار في

يأتى المتكلم حيث اقترنت بأكثر من نصف قوافي القصيدة، فقد جعل نفسه موضوعاً للقصيدة، تلك الممتلئة شوقاً وحنيناً لمدينته، والممتلئة يأساً من دهره.

4. خاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات هذه محاولة حاول الباحث من خلالها أن يقف على بعض القصائد التي احتوت ظاهرة الشوق والحنين إلى مدينة الأبيض في الشعر السوداني من خلال ثلاث قصائد هي قصيدة العباسي (عروس الرمال) وقصيدة الناصر (حنين إلى الأبيض) وقصيدة الشاعر إبراهيم عمر الأمين (ذكرى وحنين). وتوصل الباحث إلى النتائج التالية:

1- نظمت في الأبيض قصائد كثيرة يطغى عليها الشوق والحنين، ولكنها لم تجمع في كتاب واحد.

2- ظاهرة الشوق والحنين إلى الأبيض ترجع إلى جمال طبيعة الأبيض الساحرة وخاصة في فترة الخريف، وكرم أهلها وحسن عشرتهم.

3- معظم الذين كتبوا شعراء عن الأبيض عاشوا فيها فترة من شبابهم ومازالوا يحنون إلى تلك الأيام الخوالي التي عاشوها في ربوعها.

وفي الختام توصي الدراسة بجمع الشعر الذي كتب عن مدينة الأبيض في كتاب واحد، ثم دراسته من كل جوانبه الفنية والبيانية واللغوية.

5. المصادر والمراجع

- 1- إبراهيم عمر الأمين: بدون. ت. رجال خالدون، بدون ط.
- 2- التبريزي: الخطيب التبريزي، 1964م، ديوان أبي تمام، بشرح الخطيب التبريزي، تحقيق محمد عبده عزام، (ط1)، دار المعارف، مصر.
- 3- جبر: محمد إبراهيم جبر، 1989م، الحنين إلى الوطن في الأدب العربي، (ط2)، دار القلم للنشر والتوزيع الإصدارات العربية، دبي.
- 4- سامي: أحمد عبد الله سامي، 1999م، الشاعر السوداني محمد سعيد العباسي، (ط2)، دار البلد، الخرطوم.

- 5- الشريف: الشريف المرتضى علي بن الحسين العلوي، 1954م، أمالي المرتضى، تحقيق محمد إبراهيم أبو الفضل، (ط3)، مطبعة الحلبي، دمشق.
- 6- صالح، المولى: محمد عثمان صالح، محمد الحسن فضل المولى، 2012م، شعراء المعهد العلمي-نماذج وتراجم- (ط1)، سلسلة إصدارات هيئة علماء السودان.
- 7- طه حسين: 1981م، مع أبي العلاء في سجنه، (ط1)، دار المعارف، القاهرة.
- 8- عابدين: عبد المجيد عابدين، بدون، ت. في الشعر في السودان، (ط1)، الدار السودانية للكتب، الخرطوم.
- 9- العباسي: محمد سعيد العباسي، 2010م، ديوان العباسي، (ط1)، الدار السودانية للكتب، الخرطوم.
- 10- عبد الله الطيب: 1991م، المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها، (ط4)، دار جامعة الخرطوم للنشر، السودان.
- 11- قريب الله: 1999م، الناصرات (مجموعة من شعر الناصر قريب الله)، (ط1)، شركة دار البلد للطباعة والنشر والتوزيع، الخرطوم.
- 12- المعري: أحمد بن عبد الله المعري، 1901م، شروح سقط الزند، (ط3)، مطابع هندية، القاهرة.